سعيد بوخاوش
جامعة البليدة *2*

المحفوظ القرآني وأهميته في تطور الأداء اللغوي العربي

ملخص

يعالج هذا المقال أهمية المحفوظ القرآني في تطور الأداء اللغوي ودوره في تنمية الملكة اللغوية من نواح عدة ، حيث يبين علاقة الحفظ بالمستويات اللغوية : المستوى الصوتي و الصرفي و التركيبي و الدلالي كما يتطرق المقال لعلاقة تأثير المحفوظ القرآني بتطور المراحل العمرية لدى المتعلم .

Résumé

Nous voudrions exposer, dans cette étude le rôle que peut jouer la récitation du Coran et sa mémorisation de la prononciation selon les normes de l'orthoépie arabe ainsi que dans l'évolution de la compétence langagière des apprenants au cours de toutes les étapes de leur scolarisation.

إن للقـرآن الكريـم دورا لا يسـتهان بـه في تفعيـل اكتسـاب ملكـة اللسـان العـربي، ولقـد دلـت التجـارب أن تنشـئة الأبنـاء عـلى حفـظ القـرآن الكريـم وتلاوتـه وإتقانـه عامـل هـام في حصـول ملكـة اللغـة العربيـة، ولقـد كان مخطـط القضـاء عـلى الكتاتيـب القرآنيـة التـي كان نـشء الأمـة يتلقـى فيهـا كتـاب اللـه أكـبر ضربـة آذت اللسـان العـربي وأثمـرت لنـا هـذه الأجيـال المشـوهة ألسـنتها في النطـق.

وإذا كنـت قـد ركـزت عـلى القـرآن الكريـم في هـذا المقـال كعنـصر هـام في اكتسـاب الملكـة، فأنـا لا أغفـل النصـوص الأخـرى كالحديـث الشريـف، وكلام العـرب شـعرا ونـثرا، وعلـوم اللغـة بصفـة عامـة، فكأننـي أقـول : أن إعـادة اللغـة إلى التـداول أساسـه تطويـع اللسـان منـذ الصغـر عـلى حفـظ النصـوص القرآنيـة والشـواهد الحيـة الجميلـة، وعـلى قـدر المحفـوظ وكـثرة الاسـتعمال تكـون جـودة الـكلام المكتـوب والمنطـوق.

أهمية المحفوظ عامة في نمو ملكة اللسان :

إن للحفـظ أهميـة بالغـة في اكتسـاب رصيـد لغـوي وأداء محكـم للـكلام، وباعتبـار المحفـوظ الأدبي نصـا أدبيـا أو مجموعـة نصـوص مختـارة مـن عيـون الأدب (شـعرا ونـثرا) «فإنـه يفـترض أن يميـزه جملـة

مـن الخصائـص اللسـانية والفنيـة جـراء تبليغهـا إلى المتعلمـين حسـب المسـتوى والقـدرة عـلى الاسـتيعاب، وتحقيـق الأثـر اللسـاني أو الفنـي أو التربـوي أو النفـسي، يحقـق بعضهـا أو كلهـا»[1].

إن كـثرة حفـظ النصـوص ودوام المطالعـة، والحديـث بلغـة مـا في وسـط اجتماعـي معـين يسـاعد عـلى تنميـة الرصيـد المعجمـي والـدلالي، كـما يسـاهم في بنـاء بنيـة نحويـة ثابتـة ينتـج عـلى منوالهـا الـكلام، كـما أن للحفـظ دورا في اكتسـاب ملكـة صرفيـة تسـاعد عـلى اشـتقاق المفـردات بعضهـا مـن بعـض سـماعا وقياسـا، أضـف إلى أنـه يكسـب النـشء قـدرة بلاغيـة أدائيـة، كـما أن النـص المحفـوظ يحقـق الرصيـد الفنـي والتربـوي والأخلاقـي.

أهمية المحفوظ القرآني في نمو ملكة اللسان :

إذا جئنـا إلى القـرآن الكريـم، فإننـا نلمـس فيـه جميـع الجوانـب المذكـورة سـابقا اللغويـة بمسـتوياتها والنفسـية والتربويـة والأخلاقيـة... ولهـذا سـأتحدث عـن أهميـة الرجـوع إلى حفـظ القـرآن الكريم ليسـتقيم لسـان الناشـئة عليـه.

كلنـا يعلـم أن القـرآن الكريـم مفخـرة العـرب في لغتهـم، إذ لم يتـح لأمة مـن الأمـم كتـاب مثلـه لا دينـي ولا دنيـوي «مـن حيـث البلاغـة والتأثـير في النفـوس والقلـوب»[2]، «فهـو خـارج عـن وصفـي الشـعر والنـثر»[3] فـلا هـو شـعر مـوزون، ولا سـجع مرسـل، إنمـا هـو نمـط وحـده، فصلـت آياتـه بفواصـل تطمـئن عندهـا النفـس حـين قراءتـه، وتجـد في ألفاظـه روحـا وعذوبـة، فهـو نمـط باهـر، معجـزة ببيانـه وبلاغتـه «كان وحيـدا في بابـه، لم يكـن قبلـه ولم يكـن بعـده مثلـه... وتحـدى النـاس أن يحاكـوه، وأن يأتـوا بمثلـه، فلـم يجـدوا إلى ذلـك سـبيلا»[4] قـال تعـالى : «قـل لـئن اجتمعـت

الجـن والإنـس عـلى أن يأتـوا بمثـل هـذا القـرآن لا يأتـون بمثلـه ولـو كان بعضهـم لبعـض ظهـيرا»[5].

لقـد أثـر القـرآن الكريـم في اللغـة أيمـا تأثـير، بـل إنـه القامـوس الـذي حفـظ لهـا وجودهـا، إذ تحـول المسـلمون في جمهورهـم إلى حفظـة للقـرآن الكريـم، يتلـوه كبيرهـم وصغيرهـم حتـى ممـن سـكنوا الصحـاري البعيـدة ورؤوس الجبـال، مـما جعلهـم ينطبعـون بطوابعـه اللغويـة»[6].

القـرآن هـو الـذي جمـع العـرب عـلى لهجـة قريـش، وهـذا مـا أدى إلى اجتـماع العـرب عـلى لهجـة ولغـة واحـدة «إن آثـار القـرآن الكريـم عـلى اللغـة العربيـة كبـيرة جـدا، وقـد بسـط القـول فيهـا كثـير مـن الكتـاب، أدبـاء وعلـماء»[7]، ولا يسـعنا المقـام هنـا لذكرهـا، بـل تكفـي الإشـارة إليهـا، فـإن ألفـاظ الذكـر الحكيـم وبلاغتـه وأسـلوبه الرائـع الـذي ليـس لـه سـابقة ولا لاحقـة في تاريـخ العـرب هـو الـذي أقـام الـصرح للغـة العربيـة وآدابهـا وعلومهـا «فعـلى هديـه أخـذ الخطبـاء والكتـاب والشـعراء يصوغـون آثارهـم الأدبيـة مهتمـين بديباجتـه الكريمـة وحسـن مخـارج الحـروف فيـه ودقـة الكلـمات في مواضعهـا مـن العبـارات بحيـث يحيـط بمعناهـا... مـع الرصانـة والحـلاوة، وكان العـرب ولا يزالـون يحفظونـه، فهـو معجمهـم اللغـوي والأدبي الـذي سـاروا عـلى هـداه مهما اختلفـت أقطارهـم أو تباعـدت أعصارهـم وأمصارهـم[8].

وعـلى هـذا رأينـا أدبـاء العـرب ممـن يملكـون لغـة فصيحـة ينتقـون مـن فيضـه وينهلـون مـن نبعـه الغزيـر العـذب مـا يقـوّم ألسـنتهم، ويكفـل لهـم إحيـاء القـول دون تكلـف، أو اجتـلاب للألفـاظ مـن بعيـد، ولهـذا جعلـت في هـذا المقـال القـرآن عمـود وأسـاس وهيـكل الحفـظ السـليم فهـو وسـيلة أساسـية لامتـلاك اللسـان، ومـن حقنـا أن نواجـه

أنفسنا بهذا السؤال : كيف تتألق اللغة الفصيحة إذا أبعدنا الأجيال عن حفظ القرآن الكريم وتحليل أساليبه اللغوية ؟

إن كل غيور يحب لغته يأبى الفصل بين القرآن واللغة بعد أن رسخت فطرة التوحد طوال أربعة عشر قرنا «إن هذه النظرة حفظت الفصيحة من التحول إلى لغات عدة كما هي حال اللاتينية، وأبقت التراث العربي حيا مقروءا، في حين تحولت اللاتينية إلى لغات مستقلة بعضها عن بعض، وغدا صعبا أن يفهم أصحاب كل لغة تراثهم بلغة حاضرهم»[9] ، ولولا القرآن لصارت العربية كاللاتينية، ولصار العربي في المشرق يحتاج إلى ترجمة ما يكتبه أخوه في المغرب ليفهمه.

إن القرآن الكريم هو الجامع للعربية والعرب، وهذا يعني أن البحوث اللغوية والمؤسسات التربوية والعلمية التي تعزز الارتباط بين القرآن واللغة الفصيحة تقود بداهة إلى تألق الفصيحة ورفعة شأنها في الواقع اللغوي العربي، ولا أدل عن ذلك من أن نستقرئ التاريخ الذي يؤكد أن العناية بالقرآن كانت الأساس في نهضة الفصيحة وشيوعها، فالكثير من الأعاجم الذين أقبلوا على الدين الإسلامي يحفظ القرآن الكريم دفعهم ذلك إلى إتقان العربية والنبوغ فيها «بتطويع ألسنتهم منذ الصغر على بليغ القول وفصيح الكلام المعجز، وذلك بتنمية مهارات الاستماع وسلامة النطق والتلاوة بشروطها عند أهل التجويد والإتقان»[10]، فصار العديد منهم إماما في عصره، على ما وصلنا من أخبار المحدثين والقراء واللغويين كالبخاري ومسلم وأبي داوود وسيبويه والخليل وغيرهم... والأمر السابق يبين لنا ما يأتي [11]:

• قاعـدة لغويـة تخـص اللغـة العربيـة : هـي أن العنايـة بالقـرآن وسـيلة لإتقـان الفصيحـة ونهضتهـا.

• أن الأعاجـم ـ أو ممـن فقـد الوسـط الطبيعـي للغـة ـ قـادرون عـلى إتقـان الفصيحـة إذا لجـؤوا إلى العنايـة بالقـرآن.

• أن العنايـة بالقـرآن وسـيلة يسـتطيع العـرب المعـاصرون اصطناعهـا لتعليـم اللغـة العربيـة، وإذا تبـين لنـا ذلـك فـما مـن شـك في أن حفـظ القـرآن وسـيلة ضروريـة لامتـلاك اللسـان العـربي، وأن الاعتنـاء بتدريـس القـرآن العظيـم في جميـع المراحـل التعليميـة مهـم جـدا في الحفـاظ عـلى المسـتويات اللغويـة (الصوتيـة، الصرفيـة، النحويـة، الدلاليـة والبلاغية...)، وإذا تتبعنـا الواقـع التاريخـي فإنـه يوضـح لنـا أن الذيـن درسـوا في الكتاتيـب القرآنيـة إبـان الاحتـلال الفرنـسي بالجزائـر أقـدر مـن غيرهـم عـلى التكلـم بالفصيحـة مـن خريجـي المـدارس العربيـة بعـد الاسـتقلال والسـبب في ذلـك ـ يقينـا ـ هـو ممارسـة اللغـة بحفـظ القـرآن الكريـم والمداومـة عـلى تلاوتـه وتفسـيره، والانكبـاب عـلى دراسـته وحفظـه، كـما أن الـدارس لحيـاة كبـار العلـماء والأدبـاء يتأكـد أن مـن أهـم أسـباب تفوقهـم حفظهـم للقـرآن الكريـم حـين تكوينهـم اللغـوي في الصغـر ومرحلـة الشـباب.

إن الأخـذ بهـذه الفكـرة مهـم جـدا لتكويـن اللسـان العـربي المعـاصر لاسـيما بإدخـال برامـج الحفـظ في جميـع مراحـل التعليـم، ولقـد تتبعـت برامـج ومناهـج العديـد مـن الـدول العربيـة، ولاحظـت إدراج مـادة الحفـظ في المقـررات الدراسـية، فهـم يأخـذون الطـلاب في مراحـل التعليـم المختلفـة بقـراءة أجـزاء معينـة مـن القـرآن الكريـم كل عـام، ويـشرف عـلى هـذه القـراءة مختصـون في الإقـراء والتحفيـظ، ولنـا أن

نتصور مدى الفائدة اللغوية التي يحققها تطبيق هذه التجربة في العالم العربي ـ ومعظمه من المسلمين ـ بقراءة جزء واحد لا حفظه مع فهم معناه عامة وترديد ألفاظه في عام دراسي من طلابنا الذين يقضون في التعليم ما يقرب من خمسة عشر سنة ..[12]

إنه ينبغي أن نعيد النظر في طريقة تعليم اللغة العربية، لاسيما ارتباطها بالقرآن الكريم، وذلك أن التاريخ اللغوي أثبت التوحد بين القرآن والفصيحة كما سبق ذكره، وأنه كلما قربت هذه النظرة (نظرة التوحد) كلما زاد تألق اللغة الفصيحة.

ومما سبق يتبين لنا أن عودة اللغة العربية الفصيحة إلى الاستعمال والتداول مرهون باقترانها بحفظ القرآن الكريم، فهو حصنها الحصين، وركنها الركين، ومرجعها الأمين.

تأثير حفظ القرآن على المستويات اللغوية :

تبين مما سبق أن للقرآن الكريم أثرا بالغا على اللغة العربية، وهذا جعل الأدباء والعلماء يتشبثون بحفظه وبتفسيره، وأريد أن أبين هنا أهمية المحفوظ القرآني على المستويات اللغوية.

المستوى الصوتي :

تعتبر اللغة نظاما شاملا يتألف من أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، و هذه الأصوات هي اللبنات التي تحمل اللغة، أو المادة الخام التي تبنى منها الكلمات، فما اللغة إلا سلسلة من الأصوات المتتابعة أو المتجمعة في وحدات أكبر لترتقي حتى تصل إلى كلمات فعبارات... و لهذا فإن الاهتمام باللغة و الحفاظ عليها وتطويرها يقتضي الاهتمام بمستواها الأول ـ مستوى الأصوات ـ الذي

هـو الربـاط و الأسـاس للمسـتويات الصرفيـة و المعجميـة و التركيبيـة و البلاغيـة.

ولهـذا نجـد اليـوم الصوتيـات كعلـم لـه أسسـه وقواعـده و تقنياتـه لـه مـن الأهميـة في العـصر الحديـث مـا جعلـه يسـاهم في تحسـين الأداء اللغـوي، فهـو يعنـى بتصحيـح النطـق بإصـلاح عيوبـه، سـواء كانـت عيوبـا نطقيـة أو أمراضـا في النظـام العصبـي المركـزي أو نقصـا في السـمع و غيرهـا.

ولقـد عـرف العـرب هـذا العلـم قديمـا، وارتبـط بالقـرآن الكريـم، وعـرف بعلـم التجويـد، و كنـت قـد تحدثـت سـابقا عـن علاقـة القـرآن الكريـم باللغـة العربيـة ودورهـا في تحسـين الأداء اللغـوي، كـما أشرت إلى ضرورة ارتبـاط النـشء بتـلاوة القـرآن لينشـأ لسـانهم عـلى الفصحـى و عـلى حفـظ الـكلام البليـغ لينسـجوا عـلى منوالـه كلامـا منطوقـا أو مكتوبـا قريبـا مـن اللغـة الفصيحـة و بعيـدا عـن العاميـات و اللهجـات و اللغـات الوافـدة، سـأتطرق إلى أهميـة علـم التجويـد :

علم التجويد و تحسين الأداء اللغوي :

إذا كان ربـط الناشـئة بالقـرآن الكريـم لـه أهميـة بالغـة في الحفـاظ عـلى اللغـة العربيـة، فـإن هـذا الربـط ينبغـي أن يلتـزم منهجيـة معينـة، و برنامجـا مدروسـا، فالهـدف تحسـين الأداء اللغـوي باسـتخدام كلام اللـه (القـرآن) ، فـلا يقـرأ كيفـما اتفـق ، قـال تعـالى : «و رتـل القـرآن ترتيلا»[13].

فينبغـي أن نقـرأه قـراءة صحيحـة خاليـة مـن اللحـن الخفـي و الجـلي[14] لننـال الأجـر و الثـواب، و بالمقابـل نحصـل ملكـة لسـانية عربيـة سـليمة تسـاهم في تحسـين الأداء اللغـوي .

و الحفظ الصحيح للذكر الحكيم لا يتأتى للمرء إلا إذا تعلم أحكام تلاوة القرآن الكريم و هذه الأحكام، هي قواعد علمية تحويها كتب التجويد، ومضبوطة بإحكام، منها الميسر و منها المختصر ومنها المطول ولهذا ينبغي أن نجعل لكل مستوى تعليمي نماذج عملية لتحسين الأداء في الحفظ.

إلا أن التعليم الأكمل و الأنجع هو الذي يسلك الطريق العملي في قراءة القرآن الكريم وتحفيظه، هو أن يتقن الطالب الآيات مجودة مسموعة، فتتبين مخارج الأصوات و صفاتها المختلفة، وهو الأمر الذي سلكه القراء منذ نزول القرآن... ولازال في بعض البلدان السند متصلا إلى الرسول عليه الصلاة و السلام، إلى جبريل عليه السلام، إلى الله ذي الجلال و الإكرام[15].

و بهذا التلقين للقرآن يستطيع الطالب أن يمتلك فصاحة و بلاغة جيدة، و الواقع خير دليل، فالطلبة حفظة القرآن الكريم في الكتاتيب دليل قاطع و برهان ساطع على تفوقهم في فصاحة اللسان على طلبة المدارس النظامية.

إن المستوى الصوتي هو أساس اللغة، و الاهتمام به اهتمام باللغة، و التفريط فيه تفريط فيها، كما أن تطور اللغات في جانبها الصوتي أسرع و أكثر تنوعا من تطورها في جوانب الصيغ و النحو والمفردات و الأساليب»[16]، و السبب واضح في هذا «و هو أن الجانب المنطوق في اللغة يمارس بحرية أكثر من الجانب المكتوب»[17]. و قراءة القرآن وحفظه مجودا يعني تحقيقا للأداء اللغوي السليم.

المستوى الصرفي و النحوي و الدلالي :

القرآن الكريم كلمات كثيرة، تجعل حافظه يزيد من رصيده اللغوي و يكثفه، و الأمر نفسه مع المعجمية، فدلالة الألفاظ في

القـرآن تفهـم بالتفسـير، ولهـذا : «القـرآن قامـوس مـن لا قامـوس لـه». كـما أن نظمـه معجـز، وقـد بـين العلـماء ذلـك في كتبهـم كـما فعـل عبـد القاهـر الجرجـاني[18]، و عليـه فـإن الحافـظ للقـرآن يكتسـب منـوال نظـم الجمـل و التأليـف بـين الكلـمات، ويصـير ذلـك قالبـا مرسـوما في ذهنـه، يصـوغ عليـه كلامـا لا حـصر لـه منطوقـا ومكتوبـا.

إن النـص المختـار للحفـظ هـو القـرآن الكريـم، يـراد لـه أن يحفـظ في الذاكـرة النشـطة للمتعلـم بغية الاسـتعمال بالتذكـر و التوظيـف، وهو ميسر للحفـظ، قـال جـل جلالـه : ولقـد يسرنـا القـرآن للذكـر فهـل مـن مذكـر»[19].

يمكن رسم المعادلة الافتراضية للغة بالشكل البسيط :

اللسان : معجم + نحو =متن اللغة +قواعد وقوانين .

مـتن اللغـة أو المسـتوى المعجمـي يتنـاول معـاني الكلـمات و التغـيرات الصرفيـة الخاصـة بـكل كلمـة، وحفـظ القـرآن كـما قلنـا يسـاعد عـلى تتمـة هـذا الجانـب. وهـذا المصطلـح أي مـتن اللغـة» هـو مـا دل عـلى الجانـب الهيـكلي الظاهـري في بنـاء اللسـان، أي الأصـوات اللغويـة، الألفـاظ، الكلـمات، الأوزان، التراكيـب و الجمـل وسـائر أنـواع الخطـاب[20].

ومـن هنـا فإنـه مـن المسـتحب في رأيـي أن أطـرح ـ في مجـال اكتسـاب اللسـان و تهذيـب ملكـة التعبـير ـ رأيـا للمعالجـة و النقـاش التربـوي بغـرض العمـل عـلى توسـيع الرصيـد اللسـاني مـن مـتن اللغـة و شـحن المعجـم الذهنـي ثـم التـدرب عـلى اسـتحضاره و توظيفـه، فحفـظ القـرآن هـو تمكـين المتعلـم مـن اكتسـاب مـتن اللغـة و إثـراء للمعجـم الذهنـي، و لا يعنـي هـذا أنـه ينبغـي الاقتصـار عليـه فقـط، بـل يجـب التنويـع مـن مشـارب مـتن اللغـة.

و أما من ناحية النظم «فهو تلك القواعد و القوانين و الضوابط التي تتحكم في بناء الكلم المفرد و تخصيصها و بيان وظيفة الوحدات المعجمية و الدلالية فيما بينها و بين سائر أنواع التراكيب اللسانية»[21].

و يحتوي مستوى النحو : باب الصرف و باب النظم.

الصرف : Morphologie و هو نظام يحكم الكلمات المنفردة بمعزل عن الوظيفة و يوزعها على مختلف اجزاء الخطاب (سم، فعل، حرف) ثم ينظر إلى صورتها ووزنها.

النظم Syntaxe وهو نظام يعنى بترتيب الكلمات في الجمل، و العلاقة بينها، وبيان وظيفة كل كلمة في التركيب بحسب مقتضيات الحال.

ومنه ترتيب المعادلة السابقة : [اللسان = معجم + نحو] لم يكن اعتباطيا. و إنما هو عاكس لأهمية كل طرف. فالأول المعجم أساسي في البناء الهيكلي للغة بشكل عام و لذلك ينبغي أن يوليه المربون و المهتمون بقضايا اكتساب اللسان جل اهتمامهم، فليس من المعقول أن نطلب من التلاميذ في المراحل الأولى تركيب جمل أوتعابير أو تحليل نصوص وفق قواعد النحو التي أثقلت كاهل التلميذ، بينما يكون هذا الأخير واقع رصيده اللغوي في إفلاس، أو عاجزا على توفير المادة الأساسية المتمثلة في الحصيلة الإفرادية المكتسبة من محيط المتعلم و ثقافته، هذه الحصيلة التي تعد في زمرة الوحدات القاعدية لبناء الجمل و التعابير، ثم بناء النص .

و النص القرآني الذي خصصت له هذا المقال، يمثل نصا لسانيا متكاملا، موجود = ا بالبديهة ضمن عناصر المعادلة السابقة و يمثلها،

فكأن حافظ القرآن يأخذ اللغة و هي في حالة الحركة (كلام) يأخذ الألفاظ و الجمل و النسق و النظم القرآني، ويكون لنفسه منوالا ذهنيا عربيا، على وفق ماكان العرب في القديم يفعلونه مع أبنائهم لما كانوا يبعثون بهم إلى البوادي لغرض تفتيق ألسنتهم، حيث يعايشون اللغة في زمن الصبا، فيسمع و ينصت الواحد منهم إلى الأداء اللغوي السليم، فتمتلئ قريحته بلسان قومه، ويكتسب منوالا وقالبا لغويا ذهنيا يمكنه من إنتاج الكلام.

إرساء مكانة القرآن في دور التعليم وسيلة لتحسين الأداء اللغوي :

تبين أن حفظ القرآن الكريم أداة أساسية لترسيخ اللغة العربية عند الأطفال، وأن الهياكل الاجتماعية بصفة عامة ضرورية لتمكين الطالب من حفظ القرآن، وهذا يدعونا إلى إيجاد إطار محكم وعلمي يربط علاقة هذه الهياكل بالقرآن الكريم ويعين تحقيق إعادة اللغة إلى التداول والاستعمال بشكل فصيح وصحيح.

وتعتبر المدرسة بيئة التعليم الرسمية، والمسؤولة عن تحقيق مهارات اللغة بصفة عامة بمستوياتها المختلفة، مستخدمة الكفاءات العلمية والطرق التعليمية (من استماع وقراءة وحفظ وفهم وتحدث وتعبير وكتابة...) وتوزيع هذه المهارات بشكل طبيعي تدريجي ومترابط على مراحل التعليم العام (حضانة، أساسي، إعدادي وثانوي) بحيث تبدأ المناهج بتقديم مدخلات اللغة ـ الاستماع والقراءة ـ وينتهي بتقديم مخرجات اللغة ـ التحدث والكتابة ـ كما تتجلى ندرة هذا المنهج في تقديم اللغة العربية بشكلها (التكاملي) (نص قرآني) وحدة موضوعية واحدة من خلال تحليل النص القرآني المتمثل في مهارات اللغة ومستوياتها (صوتية ـ تركيبية ـ صرفية ـ بلاغية ـ إعجازية ...) مع مراعاة سن الطفل في ذلك.

وحيث أن القرآن الكريم أهم مصادر اللغة العربية، وأن قراءته إلى جانب أنها عبادة، فهي تثري مهارة القراءة عند التلاميذ، وتغذي الملكة اللغوية بالأساليب الأدبية والبلاغية، فينبغي بل يجب إدخال هذا المصدر الهام للغة من خلال توزيع قراءة أجزاء القرآن الكريم أو حفظها إن أمكن على الفصول الدراسية أو على مراحل الطفولة حيث قسم المختصون الطفولة إلى مراحل :

- مرحلة الواقعية والخيال المحدود بالبيئة لـ (3 ـ 5 سنوات).
- مرحلة الواقعية والخيال المطلق (6 ـ 8 سنوات).
- مرحلة البطولة (8 ـ 12 سنة).
- مرحلة المثالية (12 ـ 15 سنة).

وفي هذه المراحل يتزود فيها الطفل بالخبرات التطبيقية والنظرية وتنمو الحصيلة اللغوية.

ويمكن تقسيم المراحل العمرية السابقة إلى قسمين : مرحلة ما قبل التعليم المدرسي ومرحلة ما بعد التعليم المدرسي.

مرحلة ما قبل التعليم المدرسي : يسمي البعض هذه المرحلة بمرحلة الواقعية والخيال المحدود بالبيئة، ويرى البعض الآخر أنها مرحلة الطفولة المبكرة و يسميها البعض : مرحلة الروضة و لها تسميات أخرى : مرحلة ماقبل المدرسة، مرحلة السنوات التكوينية...[22] ومهما اختلفت التسميات فنعني بها المرحلة الأولى من تعليم الأطفال.

حفظ القرآن وأثره في هذه المرحلة : نسمع عند قراءة تراجم العلماء أنهم بدأوا حفظ القرآن ابتداء من الثالثة أو أقل، ويركز أ

د. صالح بلعيد على عنصر هام في التعليم في هذه المرحلة، سواء في كتاتيب المساجد أو المدارس التحضيرية و هو (التعليم بالاكتشاف)[23] حيث يحصل الطفل على اللغة بمساعدة بسيطة من المعلم و يكون هذا التعليم تدريسا عمليا ومتدرجا حيث يتم توظيف الطريقة التكاملية التي تعمل على تنشيط الدافعية الثقافية و الإبداعية (توجيه التلميذ للمشاركة الفعالة).

إن هذه المرحلة تتطلب الاهتمام العميق باللغة، و القرآن الكريم النموذج الأمثل للكلام العربي فهو كلام الله، وقد أثبت حفظ التلاميذ له نجاحا في العديد من الدول العربية قديما وحديثا.

إن المراحل الانتقالية (مرحلة رياض الأطفال أو الكتاتيب القرآنية) ينبغي أن تسهل انتقال الطفل من بيئته إلى مدرسته، ولهذا يفترض إلزامية هذه المرحلة أي في مراحل التكوين العام، لأنها الأساس في تكوين ملكة اللغة، ففيها يتمكن الطفل من تنمية مهارات اللغة العربية، وأهمها مهارة الاستماع عن طريق سرد بعض الآيات القرآنية خاصة و الأحاديث و الأناشيد و بعض الحكايات المشوقة و ترغيبه في ترديد مايسمع لا سيما القرآن، والتأكد مما يسمع، ويمكن الاستعانة بالأشرطة السمعية و البصرية لتحقيق هذا الغرض «ويعتبر المعلم في هذه المرحلة الركن الأساسي في تحقيق أهداف التربية اللغوية المتأتية من حفظ القرآن الكريم، فحسن تكوينه أساس تربية الملكة اللغوية»[24]. كما ينبغي أن يتم إعداد البرنامج المنتهج من قبل مختصين، حيث يعتمد أساسا على المنطوق (الشفهي) لغرض تنمية الملكة اللغوية، ولكي لا تكون اللغة المتعلمة في المدرسة لاحقا هي اللغة الثانية، وهذا أساس تحقيق الممارسة العفوية للغة في المجتمع

بحفظ نصيب من القرآن (قصار السور مثلا) دعامة أساسية للغة المدرسة فيما بعد.

مابعد الدخول المدرسي :

إن المدرسة هي بيئة التعليم الرسمية و المسؤولة عن تحصيل مهارات اللغة بصفة عامة بمستوياتها المختلفة، كما أسلفت ذكره، ويمكن الإشارة هنا إلى أن تحقيق حفظ القرآن الكريم في المدرسة يحتاج إلى النظر في عناصر أساسية، ونجد دراسات عديدة رسمية أكاديمية، قام بها باحثون في هذا المجال ركزت على عناصر أساسية يمكن تلخيصها فيما يلي :

- المتعلم (خصائصه الوجدانية المعرفية الفردية)
- البرامج (الكتاب توزيع الحفظ)
- المناهج والطرق(في الفهم و الحفظ)
- الوسائل (سمعية،بصرية،كتابية)
- المعلم(وظائفه ، تكوينه ،مردوده..)

وهذه العناصر هي ركائز أساسية في العملية التعليمية لاسيما فيما يخص تحفيظ القرآن إذ يجدر بنا أن نستفيد من هذه الدراسات ولا ينبغي أن تبقى مكنوزة في سطور الرسائل الجامعية و على رفوف المكتبات.

إدخال نصوص القرآن وضمها إلى مناهج التعليم بين التأييد والاعتراض :

تبين لنا مما سبق أن عودة اللغة العربية الفصيحة إلى الاستعمال مرهون باقترانها بالقرآن الكريم، إذ يعتبر حصنها الحصين، و أحاول أن أركز على ضرورة إدراج مادة حفظ القرآن في المقررات و البرامج الدراسية بغية إثراء الرصيد اللغوي وتحسين الأداء اللساني عند النشء، من منطلق أن اللغة تكتسب وتتعلم من خلال نصوص تحفظ عند غياب الوسط الاجتماعي اللغوي المتحرك السليم.

ولكن قد يعترض قائل : «بأن حفظ القرآن الكريم للناشئة لا يمكن أن تحصل معه اللغة، فجيل اليوم يتعلم من بيئته لغة قد تبعد عن لغة القرآن، وبالتالي يصعب عليه فهم القرآن، فلا يكفي حفظه له لاكتساب اللغة، لأن الحفظ دون الفهم للمفردات و العبارات قد يمثل عائقا لاكتساب اللغة، كما أن القرآن معجز بلفظه ومعناه، والمقصود من الحفظ هو أن يرسخ في الذهن ليكون منوالا يحتذى به في إبداع الكلام، ولما كان الله قد تحدى الإنس و الجن على أن يأتوا بسورة من مثله : «قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» [25]فدل ذلك على أن حفظه لا يأتي منه ملكة لسانية، و لقد أيد هذا القرآن علماء في القديم و الحديث، فنجد أن ابن العربي سلك طريقة جديدة في تعليم الولدان، حيث قدم تعليم العربية و الشعر على سائر العلوم، كما كان مذهب الأندلس في عصره، لأن الشعر ديوان العرب، ثم ينتقل إلى الحساب ثم إلى درس القرآن، ويقول : «وياغفلة أهل بلادنا ! في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم، وينصت في أمر غيره أهم منه» [26]. ثم تأتي بعد ذلك العلوم الأخرى و قد أيد ابن خلدون في البداية هذا المذهب في المقدمة فهو يقول : «و أما أهل إفريقية و المغرب، فأفادهم الاقتصار على

القـرآن القصـور عـن ملكـة اللسـان جملـة، وذلـك أن القـرآن لا تنشـأ عنـه في الغالـب ملكـة، كـما أن البـشر مصروفـون لذلـك عنـد الاسـتعمال عـلى أسـاليبه، و لا يحصـل ملكـة في اللسـان العـربي و حضـه الجمـود في العبـارات و قلـة التـصرف في الـكلام»[27].

و لكـن هـذا القـول ليـس عـلى إطلاقـه بـل ينبغـي أن يقـرأ ضمـن السـياق التـام للنـص، فابـن خلـدون يـرى أن حفـظ القـرآن هـو حصـن اللغـة العربيـة عـلى مـر العصـور.

إذ بـه تحصـل الملـكات «وصـار القـرآن أصـل التعلـم الـذي تحصـل بـه الملـكات» [28] لكـن الاقتصـار عـلى القـرآن وحـده هـو العائـق الـذي لا يرجـى منـه تحصيـل الملكـة، فـإذا مـا خلطنـا للناشـئة النـثر و الشـعر الجيديـن، وكذلـك قوانـين العربيـة (كالنحـو والـصرف و البيـان) التـي يمكـن بهـا التـصرف و الابتـكار في الـكلام، فـإن ذلـك يـؤدي إلى امتـلاك اللغـة و الحـذق فيهـا.

و خلاصـة القـول : إن القـرآن الكريـم منبـع رئيـس لمـن يروم اكتسـاب اللغـة العربيـة، ومـما يدعـو للأسـف أن نجـد مـن غـير المسـلمين مـن يحفـظ كتـاب اللغـة جملـة، لا لـشيء إلا ليسـتقيم بـه لسـانه، وتـرى المسـلمين عامـة اتخـذوه هجـرا مهجـورا .

إن علـماء التربيـة اليـوم ركـزوا عـلى أن القـرآن لا يفهـم مـن النـشء، و مـالا يفهـم لا ينبغـي حفظـه، لهـذا أبعـدوه عـن المجـال الـدراسي و المناهـج بصفـة عامـة، ولكنهـم نسـوا أن هـذا النـص الخالد ميـسر للحفظ و الذكـر، وعـد مـن اللـه، ووعـد اللـه حـق. وعليـه علينـا أن نلقـي نظـرة جـادة عـلى هـذه النقطـة، و أن ندخـل نصـوص القـرآن عـلى مراحـل التعليـم عامـة. كأن نخصـص لـكل سـنة دراسـية جـزءا مـن القـرآن إلى

غايـة المرحلـة الثانويـة و تدخـل في التقويـم و التقييـم السـنوي، وترصـد لـه التحفيـزات و الجوائـز... مـما سـيؤدي حتـما إلى تحسـين الأداء اللغوي.

إن الإخفـاق في الحصـول عـلى أداء سـليم للغـة عنـد النـشء العـربي مرتبـط بعـدم وجـود نصـوص راقيـة محفوظـة في ذاكرتـه، و التـي تمثـل منـوالا لمـا يكتـب و يتكلـم بـه، ويمـل القـرآن أعـلى مسـتوى في ذلـك، فحفـظ أجـزاء منـه أمـر ضروري لأجـل أن تتحقـق أهـداف البرامـج المسـطرة في اللغـة التـي مـن بينهـا اكتسـاب الملكـة اللغويـة .

الهوامش :

1 ـ ابـن حويـلي الأخـضر ميـدني، أثـر المحفـوظ الأدبي في نمـو ملكـة اللسـان العـربي عنـد المتعلمـين *(*الجزائـر : المدرسـة العليـا للأسـاتذة ـ بوزريعـة ـ مجلـة المـبرز ، عـدد : *19* ، *2003*م*)* .

2 ـ شـوقي ضيـف ، تاريـخ الأدب العـربي ـ العـصر الإسـلامي ـ *(*القاهـرة : دار المعـارف، ط : *6* ، *1963*م*)* ،ص : *80*.

3 ـ عبـد الرحمـن ابـن خلـدون : المقدمـة *(*بـيروت : دار الكتـب العلميـة ، ط : *1*، *1992*م*)* ، ص : *706*.

*4*ـ طه حسين، من حديث الشعر والنثر.

5 ـ الإسراء، الآية : *88* .

6 ـ شـوقي ضيـف، تاريـخ الأدب العـربي *(*أثـر القـرآن في اللغـة والأدب العـربي*)*، ص : *31*.

7 ـ ينظـر : مصطفـى صـادق الرافعـي، إعجـاز القـرآن الكريـم والبلاغـة النبويـة *(*تأثـير القـرآن في اللغـة*)*، شـوقي ضيـف : تاريـخ الأدب

العـربي (أثـر القـرآن في اللغـة والأدب العـربي) ص : *30 ـ 34* ، محمـد عبـد الواحـد حجـازي، أثـر القـرآن الكريـم في اللغـة العربيـة (الإسـكندرية : دار الوفــاء، د. ط، *1995*م).

*8*ـ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص : *34* بتصرف.

9 ـ سـمر روحـي الفيصل،المشـكلة اللغويـة العربيـة (لبنـان : مطبعـة جـرس بـرس، ط : *1* ، *1983*م) ، ص : *26*.

*10*ـ عــلي بــن إبراهيــم الزهــراني ، مهــارات التدريــس في الحلقــات القرآنيــة (م .ع الســعودية، دار ابــن عفــان، ط : *1*، *1997*م)، ص : *18* بتــصرف.

11 ـ سمر روحي الفيصل، المشكلة اللغوية العربية، ص : *28*.

12 ـ محمـد عيـد، الملكـة اللسـانية في نظـر ابـن خلـدون (القاهـرة : عـالم الكتـب، د . ط، *1971*م) ص : *30*.

13- سورة المزمل : الآية : *4*

14- اللحــن هــو الميــل عــن الجــادة في القــراءة و الانحــراف عــن الصــواب، وهــو قســمان : جــلي و خفــي.

15- يوجـد هـذا في الشـام و الحجـاز و مـصر وموريطانيـا، وغيرهـا كـما نجـد ذلـك في بعـض المـدن الجزائريـة، حيـث لايـزال شـيوخ يقرئـون القـرآن بالأسـانيد.

16- أحمــد مختــار عمــر : دراســة الصــوت اللغــوي (القاهــرة، دار الكتــب، د. ط، *1995*م) ص : *370*.

17 - م . ن، ص : *371*

18 - هـو أبـو بكـر بـن عبـد الرحمـن، ولـد بجرجـان قـرب خراسـان، تلقـى بهـا ثقافتـه و علومـه و تـوفي بهـا عـام 471هـ ـ 1093م، اهتـم بالدراسـات النحويـة و الأدبيـة و تفسـير القـرآن الكريـم، مـن أهـم أعمالـه : دلائـل الإعجـاز، أسرار البلاغـة.

19- القمر ، الآية : 16.

20- ابـن حويـلي الأخـضر ميـدني : أثقـر المحفـوظ الأدبي في نمـو ملكـة اللسـان العـربي عنـد المتعلمـين، ص : 26

21 - المرجع نفسه، ص : 27.

22 - صالح بلعيد : محاضرات في قضايا اللغة العربية، ص : 242

23 - المرجع نفسه ص : 243

24 - عـلي بـن إبراهيـم الزهـراني : مهـارات التدريـس في الحلقـات القرآنيـة، ص : 66-56.

25 - الإسراء الآية : 88

26 - ابن خلدون : المقدمة، ص : 838.

27- المرجع نفسه : ص : 737

28 - المرجع نفسه : ص : 735

المراجع :

• عبـد القاهـر بـن عبد الرحـمان بن محمد الجرجـاني : دلائـل الإعجاز، تعليق وشـرح : عبد المنعم خفاجي (مصر : القاهرة، 1969 م) .

• أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي (القاهرة، دار الكتب، د. ط، 1995م).

• أنور الجندي : المؤامرة على الفصحى لغة القرآن (تونس : دار بوسلامة، 1985م).

• ابن حويلي الأخضر ميدني، أثر المحفوظ الأدبي في نمو ملكة اللسان العربي عند المتعلمين (الجزائر : المدرسة العليا للأساتذة ـ بوزريعة ـ مجلة المبرز، عدد : 19، 2003م) .

• سمر روحي الفيصل، المشكلة اللغوية العربية (لبنان: مطبعة جرس برس، ط : 1، 1983م).

• شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ (القاهرة : دار المعارف، ط : 6، 1963م)

• صالح بلعيد :محاضرات في قضايا اللغة العربية (الجزائر : د. م. ج، د. ط، 1988 م).

• عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة (بيروت : دار الكتب العلمية، ط : 1، 1992م).

• علي بن إبراهيم الزهراني (د) : مهارات التدريس في الحلقات القرآنية (م . ع، السعودية : دار ابن غفان، ط : 1، 1997 م).

• عبد العال سالم مكرم : القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية (بيروت : مؤسسة الرسالة، ط : 3 ، 1996م) .

• كمال بشر : اللغة بين الوهم وسوء الفهم (القاهرة : دار غريب، د. ط، 1999 م).

• محمد عيد ، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون (القاهرة : عالم الكتب ، د . ط ، 1971م)

• مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية (تأثير القرآن في اللغة) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (الجزائر : مكتبة رحاب ، د . ت ، د . ط) .

• مبروك سعيد عبد الوارث : اللسان العربي ـ الهوية . الأزمة . المخرج (المنصورة : دار النشر للجامعات المصرية ، مكتبة الوفاء، د . ت ، د . ط) .

• محمد عبد الواحد حجازي ، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية (الإسكندرية : دار الوفاء ، د ، 1995م) .